﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾ [فصلت: 41 - 42]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

القرآنُ تَذْكِرةٌ بجميعِ الآياتِ المنظورةِ والمسطورةِ

لمّا هدّدهم في الآيةِ السّابقةِ على إلحادِهم في الآياتِ عمومًا؛ أتبعَ ذلكَ بالوعيدِ والتَّهديدِ على أخصِّ الآياتِ ومَجْمَعِها[1] لمَنْ يكفرون بالذِّكْرِ الذي فيه تَذْكِرةٌ بجميعِ الآياتِ وهو القرآنُ العظيمُ الموصوفُ بالعِزّةِ والعصمةِ من الباطلِ، وأنّه تنزيلٌ من مصدرِ الحكمةِ والحمدِ. فكأنّه جعلَ القرآنَ آيةَ الآياتِ، وجعلَ وصفَ القرآنِ بهذه الأوصافِ: (الذّكرُ، كتابٌ، عزيزٌ، لا يأتيه الباطلُ، تنزيلٌ من حكيمٍ حميدٍ) بمثابةِ آياتٍ ودلائلَ مستقرّةٍ على العصمةِ والحفظِ ضدّ الكافرين به، فثبتَ في السّياقِ المناسبةُ والرّابطةُ بين أجزائِه، وهي تقرير الآيات - المنظورة والمسطورة، العامَّة والخاصَّة - بأسلوبٍ يُحقِّق عِصمتَها ضدَّ خروقات الكافرين بها، والمُلحدين فيها، والطّاعنين عليها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَزِيزٞ﴾: (عزّ) أصْلٌ صَحيحٌ واحِدٌ، يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وقوَّةٍ وما ضاهاهُما، مِنْ غَلَبَةٍ وقَهْرٍ[2]، والمعنى المحوريُّ: تماسكُ الجِرْمِ الرَّخوِ أو المُتَشِبِ حتى يبلغ الشِّدَّةَ والصَّلابةَ التّامَّةَ[3]، والعِزّة: حالةٌ مانعةٌ من الغَلَبَة، والعزيزُ: الذي يَقْهَر ولا يُقْهَر[4]. ومعنى العزيزِ هنا: المنيعُ مِن كلِّ مَنْ أراده بسوءٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 305.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عزّ).
(3) محمد جبل، المُعجم الاشتقاقيّ: (عزز).
(4) الرّاغب، المُفردات: (عزّ).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

مَنْ يكفرْ بالذِّكْرِ العزيزِ فقد أذلَّ نفسَه وسَفِهَها ونَساها

إنّ الذين كفروا بالقرآنِ - المُذَكِّر للعبادِ جميعَ مصالحِهم الدّينيّةِ والدُّنيويّةِ والأخرويّةِ، المُعلي لِقَدر مَنِ اتّبعه[1] - حين جاءهم على لسانِ رسول الله ﷺ خاسرون أو هالكون أو معذَّبون عذابًا شديدًا[2]. وإنّه لكتابٌ عزيزٌ منيع، لا يستطيعُ مُحَرِّف أن يحرّفه، ولا مُبَدِّل أن يبدِّله[3]. لا يتطرّق إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ، أو ممّا فيه من الأخبارِ الماضيةِ والأمورِ الآتيةِ[4]، فلا يقربُهُ شيطانٌ من شياطينِ الإنسِ والجنِّ، لا بسرقةٍ ولا بإدخالِ ما ليس منه به، ولا بزيادةٍ ولا نقصٍ؛ فهو محفوظٌ في تنزيلِهِ، محفوظةٌ ألفاظُه ومعانيه، قد تكفّل مَن أنزله بحفظِه[5]. تنزيلٌ من حكيم في خَلقِهِ وأمْرِهِ، وتشريعِهِ وتقديرِهِ، يضعُ كلَّ شيءٍ موضعه، ويُنزلُه مَنازلَه، محمودٌ على كلِّ حالٍ، على ما له من صفاتِ الكمالِ[6].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ افتتاحِ الجملةِ بالتأكيدِ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفرُ مجلبةٌ لكلّ إساءةٍ وذمٍّ

جاء افتتاحُ جملةِ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ لتأكيدِ مضمونِ الجملةِ من المبتدأ وخبرِهِ المحذوف - اهتمامًا بشأنِ ذلك المضمون؛ أيْ: (إنّ الذين كفروا بالقرآنِ لمّا جاءهم يُلقوْنَ في النّارِ، أو لا يَخفَوْن علينا، أو سنُعذِّبُهم، أو هالكون، أو سفهوا أنفسهم ...) أيًّا ما كان تقديرُ الخبرِ (فهو خبرٌ لا يكون إلّا مُسيئًا)[7]. وعِلّةُ

(1) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 750.
(2) طنطاويّ، الوسيط: 12/ 358.
(3) مركز تفسير، المختصر في التّفسير.
(4) البيضاويُّ، أنوار التّنزيل: 5/ 73.
(5) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750.
(6) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 750، ومركز تفسير، المختصر في التفسير، ومجمع الملك فهد، الميسّر في التفسير.
(7) ابن عُثيمين، تفسير سورة فُصّلت، ص: 243.

ذلك الاهتمام الذي سيق التّوكيدُ لأجْلِه: تثبيت الحقيقةِ في ذهنِ السّامع، فالكلامُ يتعلَّقُ بقضيّةٍ إيمانيّةٍ كبرى؛ وهي كفرُهم بالقرآنِ؛ فجاء التّوكيدُ ردًّا على هؤلاءِ المُكذِّبين؛ ليُزيل أيَّ شكٍّ في أنّ هؤلاء الكافرين قد كفروا بالذِّكْرِ رغم كونه كتابًا عزيزًا، ولا يخفى ما فيه من تأكيدِ ذمِّهم والتَّشنيعِ عليهم، وتأكيدُ مضمونِ الجملة من الاسمِ والخبرِ المحذوف يُؤكّد المفارقة والتناقضَ الذي تورّطوا فيه؛ ليستبشِعَ السّامعُ حالَهم، فهولاء تأكَّد كفرُهم بالذِّكْرِ لمّا جاءهم رغم أنّه كتابٌ عزيز؛ فأيّ مفارقةٍ تلك أنْ تعلّقَ كفرُهُم بما لا يوجد أولى وأحقّ من الإيمان به. وأيضًا التّوكيد هنا يستدعي التّنبيه على خطورةِ الجنايةِ التي ارتكبوها، وهي أنّهم كفروا بالذِّكرِ، فهذه جريمةٌ ليست عاديّةً، بل جريمةٌ يجب تناولُها بكلِّ تأكيدٍ وحَزْمٍ[1].

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ ﴿إِنَّ﴾ اسمًا موصولًا:

التّعبيرُ عن ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآيةِ باسمٍ موصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ بدلًا من اسمٍ صريحٍ، يتناسبُ مع افتتاحيّةِ الآيةِ بالتّوكيد، فالموصولُ أفاد تسجيلَ الذَّمِّ على تلك الفئةِ المُتَّصفة بالكفرِ كجزءٍ من هويَّتِهم وتكوين ذواتهم وأشخاصِهم. إجراء صفةِ الكفرِ عليهم من خلالِ استعمالِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ يُشعِرُ بعلَّةِ استحقاقِهم لمضمونِ الخبرِ المحذوفِ وهو جزاؤهم على كفرِهم، ويُسرّعُ من وتيرةِ ارتقابِ السّامعِ لِما سيُخبَر به عن هؤلاءِ، ففي استعمالِ الموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ تشويقٌ إلى استكشافِ خبَرِهم. كما أنّ الموصولَ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه استحضارٌ للعلاقةِ بين هؤلاءِ والقرآنِ، فحين تسمعُ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ تستحضر تشخيصًا للعلاقةِ بينهم وبين القرآنِ، كأنّها خصومةٌ متشخّصةٌ بين طرفيْن، وفي ذلك تجليةٌ لموقفِهم المُعانِد، وأنّه ليس كأيِّ إنكارٍ أو عِنادٍ.

لا يكفرُ بالذِّكْر إلّا مُعانِدٌ مُستكبِرٌ

(1) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 200.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي: ﴿كَفَرُواْ﴾:

أعظمُ الكفرِ ما كان عن إحاطةٍ وعلمٍ وإصرارٍ وقصدٍ

التَّعبيرُ بـ﴿كَفَرُواْ﴾ ماضيًا في قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ﴾ في الآيةِ يُفيد التّأكيدَ على وقوعِ الكفرِ بالفعلِ، ويُرسِّخُ لدلالاتِ: الجزْم والتّحقُّقِ، والاستمرارِ على فِعل الكفرِ كعادةٍ تكرَّرت منهم، والتّوبيخَ المُستلزِم لاستقباحِ إصرارِهِم، كما يُظهر أنّ هذا الفعل (صدور الكفر عنهم) كان عن إصرارٍ وجحودٍ، لا عن جهلٍ وغفلةٍ، فلا يُلتمسُ عُذرٌ لهم.

معنى الباءِ في: ﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾:

كونُ القرآنِ ذِكْرًا يستوجبُ انفكاكَه عن الإنكار والكفر به

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿بِٱلذِّكۡرِ﴾ هي باءُ التَّعلُّقِ والإلصاقِ، وهي تدلُّ على المُلابسةِ بين فعلِ الكفرِ وموضوعِهِ، وهو الذِّكْر (القرآن الكريم). وقد تُفيد السَّببيّةَ على معنى أنّهم كفروا بسببِ كراهةِ الذِّكرِ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزُّمر: 45]. وهذه الباء السَّببيّة تُضيف معنى خصومتهم مع القرآنِ، فكأنّهم لتلك الخصومةِ كفروا به وازدادوا عنه بُعدًا واستكبارًا.

معنى (ال) في (الذِّكْر):

القرآنُ هو مصدرُ الذِّكْرِ ومَنبَعُهُ

(ال) في كلمةِ (الذِّكر) هي (أل) العهديَّةُ، فالمقصودُ بها شيءٌ معروفٌ ومُحدَّدٌ عند المُخاطَبِ، والمقصودُ بـ(الذِّكر) القرآنُ الكريمُ الذي هو ذِكْرٌ خاصٌّ عظيمُ الشّأن، وليس أيّ ذِكْرٍ آخر. والاكتفاء بالتّعريف بـ(ال) فيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا (الذِّكر) لا يحتاج إلى تعريفٍ إضافيٍّ، فلم يَقُلْ: (ذِكْرُ كذا أو كذا)؛ لأنّه مُتفرِّدٌ ومشهورٌ عند السّامعين، سواء آمنوا به أم كفروا، فـ(ال) العهدِ هنا تُشير إلى عَظَمَةِ وتفرُّدِ المعهودِ وهو القرآنُ العظيمُ.

دلالةُ ﴿لَمَّا﴾ في: ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾:

﴿لَمَّا﴾ هنا في قولِهِ: ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ﴾ ظرفُ زمانٍ

مُتعلِّقٌ بـ﴿كَفَرُواْ﴾ يُفيدُ التَّوقيتَ بمعنى (حين) أو (وقت)[1]. والمعنى: (كفروا بالذِّكْرِ في الوقتِ الذي جاءهم فيه)؛ أيْ: بمُجرَّدِ وُصولِ الذِّكْر إليهم كفروا به دونَ تردُّدٍ أو انتظارٍ للتَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ. فالتَّعبيرُ بـ﴿لَمَّا﴾ يُشعِرُ بالتّزامنِ الفوريِّ والارتباطِ الوثيقِ بين مجيءِ الذِّكرِ وكُفرِهم به، فيدلّ على التّسرُّعِ والعنادِ في ارتكابِ الكُفرِ، وهذا يوضِّح أنَّ كفرهم لم يكنْ نتيجةَ تفكيرٍ أو تدبُّرٍ؛ بل كان موقفًا مباشرًا بمُجرَّدِ تلقّيهم الرِّسالةَ، وذلك يوحي بتفاعُلِهم اللّحظيّ السّلبيّ مع الذِّكر الحكيم، وهذا التّعاطي القاصرُ يُظهِرُ بشاعةَ فعلِهم ومدى سَفَهِهم.

المسارعةُ في الكفرِ دأبُ المُجرمين في كلِّ زمانٍ

نكتةُ إيثارِ ﴿لَمَّا﴾ على (حين):

إذا كانت ﴿لَمَّا﴾ ظرفًا بمعنى (حين)، فلِمَ لم يَقُلْ في السّياقِ الكريم: (كفروا بالذِّكْرِ حين جاءهم)؟ ذلك أنّ ﴿لَمَّا﴾: تُفيد التّزامنَ مع الشَّرطيَّةِ الضِّمنيَّةِ، بمعنى أنّ الحَدَثَ الثّاني ﴿كَفَرُواْ بِٱلذِّكْرِ﴾ وقعَ فورَ حدوثِ الحَدَثِ الأوَّلِ (جاءهم الذِّكْرُ)، فمجيءُ الذِّكْرِ وقع أوَّلًا، وكفرُهُم وقع ثانيًا. فـ﴿لَمَّا﴾ تحملُ دلالةً فوريَّةً وسرعةً في وقوعِ الحَدَثِ الثّاني عند تحقُّقِ الأوَّلِ. ولذلك فهي تُصوِّر التَّزامنَ بين الحدثَيْن (التّلازم والاقتران الزّمنيّ)، وتدلّ على تسارعِ كفرِهم بمجرّدِ مجيءِ الذّكرِ إليهم، وهذا يعزّزُ صفةَ المسارعةِ في الكفْرِ التي تقرّر وصفَ المشركين بها في غيرِ آيةٍ. وينتج عن هذا التّزامُن العاجل معنيان بديعان: **الأوّل:** تعظيمُ جُرمِهم؛ فهم قومٌ سارعوا في الكُفرِ بالذِّكْرِ بمُجرَّدِ مجيئِهِ دونَ تكرارِ المحاولاتِ في فهمِهِ وتقديرِهِ. وهذا يُؤكِّدُ عنادَهم وجحودَهم وأنّ لديهم إرادةً مقصودةً للكفرِ وسبْقَ إصرارٍ عليه، فقد جاءهم الذِّكرُ بوضوحٍ، ومع ذلك سارعوا في الكفرِ به دونَ تردُّدٍ أو تمهُّلٍ. **والثّاني:** إظهارُ نعمةِ اللهِ عليهم

الكافرُ أسرعُ النّاسِ في مقابلةِ نعمةِ اللهِ عليهِ بالتمرُّدِ والتَّنكُّرِ

(1) الخطيبُ، التّفصيل: 24/ 324.

في مجيءِ الذِّكْرِ إليهم، ومع ذلك لم يقدروا نعمةَ اللّهِ وقابلوها بالكُفرانِ، والتَّعبير بـ﴿لَمَّا﴾ يُعزِّز هذه المقابلةَ بين إنعامِ اللّهِ عليهم بالذِّكْرِ، وتنكُّرِهم لهذا الإنعامِ بالكُفْرِ.

وأمّا (حين)؛ فتدلُّ على مُجرَّدِ الوقتِ الذي وقعَ فيه الحَدَثُ دون عدمِ اقتضاءِ التّلازُمِ أو الفوريّةِ، كما أنَّها تفتقر إلى الدّلالةِ الشَّرطيَّةِ التي في ﴿لَمَّا﴾. فلو قيل: (حين جاءهم)؛ لكان مُجرَّدَ تنبيهٍ على الإطارِ الزَّمنيِّ فقط، فلا تحملُ قوّةَ ﴿لَمَّا﴾ ودقّتَها في بيانِ سرعةِ التّزامنِ أو الرَّبط بين المجيءِ والكفرِ.

معنى الواوِ ودلالتُها في: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾:

عِزّة القرآنِ ذاتيّةٌ فيه لا تنفكُّ عنه بحالٍ

الواوُ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ هي الواو الحاليّةُ، ويصحُّ أن تكون الواوُ حاليّةً[1]، والواوُ الحاليّةُ تُفيد أمرين: **الأوّل:** مُزامنة ما بعدها مع ما قبلها[2]؛ أي: الكتاب مُتَّصفٌ بالعِزَّة في الوقتِ الذي حصلَ فيه كفرُهُم، ومع ذلك كفروا، ولا يخفى ما فيه من تسجيلِ السَّفَهِ عليهم.

والثّاني: الواو الحاليةُ تُفيدُ أيضًا أنّ ما بعدها ثابتٌ ومُتحقِّقٌ قبل حصولِ ما قبلها[3]، فالكتابُ عزيزٌ لا تنفكُّ عنه حالُ العِزَّةِ أبدًا، سواء كفروا أو لم يكفروا، من قبلِ حُصولِ ذلك منهم ومن بعده، وفيه إشعارٌ بأنّهم لا يضرّون بالكفرِ إلا أنفسَهم، وأنّ كفرَهم بالكتابِ لا يعودُ عليه بشيءٍ من النّقصِ أو التغيّرِ، فهو عزيزٌ كاملٌ أبدًا.

نكتةُ توكيدِ الجملةِ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ﴾:

توكيدُ الحقائقِ الإيمانيّةِ يُزعِجُ أسماعَ الكافرين

اكتنفَ جملةَ ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ أكثرُ من مُؤكِّد: (إنّ)، واسميّة الجملة، فلم يَقُلْ: (كان كتابًا عزيزًا أو صار كتابًا..)، ولامُ التَّوكيدِ

(1) الخطيب، التفصيل: 24/ 327.
(2) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 297.
(3) السّامرّائيّ، معاني النّحو: 2/ 306.

المُزحلَقَةُ للخَبَرِ ﴿لَكِتَٰبٌ﴾، وهذه المُؤكِّداتُ جميعًا تُكثِّفُ التّوكيدَ وتَضُخُّه في جسمِ التّركيبِ كلّه؛ لتحقيقِ عَظَمَةِ القرآنِ الكريمِ، وتثبيتِ عِزَّتِهِ في أذهانِ السّامعين، والردِّ القويِّ على المُكذِّبين به، مع التَّأكيدِ على ثباتِ هذه الحقيقةِ واستمرارِها على مَرِّ الزَّمانِ. فالتّأكيد بـ(إنّ) أزالَ الشَّكَّ والتَّردُّدَ في ثبوتِ الحقيقةِ المُقرَّرَة في مضمونِ الجملةِ وأطاح بإنكارِ المُنكرين. واسميَّة الجملة أفادتْ ثبوتَ الحقيقةِ واستمرارَها في كلِّ زمانٍ ومكانٍ، فهو ثابتٌ في عِزَّتِهِ لا يتغيَّرُ. واللّام المُزحلَقَةُ المُقترنةُ بالخبرِ في: ﴿لَكِتَٰبٌ﴾ أكّدتْ معنى الاختصاصِ والتَّعيين؛ أيْ: إنَّ هذا القرآنَ بعينِهِ هو الكتابُ العزيزُ الذي لا يُضاهيه شيءٌ، والجمعُ بين هذه الأدواتِ جميعًا يقطعُ كلَّ جدالٍ حولَ مكانةِ القرآنِ، وينفي تناولَه أو النَّظر إليه بشيءٍ من النَّقصِ أو الإخلالِ أو الاستدراكِ على تلك المكانةِ العظيمةِ.

الغرضُ من تنكيرِ: ﴿عَزِيزٌ﴾:

عِـزّةُ القـرآنِ من عِزّةِ المولى ﷻ

تنكيرُ الخبرِ ﴿عَزِيزٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ يُفيدُ التَّفخيمَ والتَّعظيمَ والإطلاقَ في المعنى، يعني أنّ القرآنَ ذو عِزّةٍ مُطلقةٍ بلا حدٍّ ولا قيْدٍ؛ فهو عزيزٌ في كلِّ الجوانبِ: عزيزٌ في مكانتِه، عزيزٌ في إعجازِه، عزيزٌ في حفظِه من التّحريفِ، عزيزٌ في قوَّتِهِ على هدايةِ البَشَرِ، وفي استعلائِهِ على الباطلِ. وعِلَّةُ هذا التَّنكيرِ: فتحُ الآفاقِ أمامَ المُتلقّي للتّفكُّرِ في عِزَّةِ القرآنِ من زوايا مختلفةٍ ومُتعدِّدةٍ ومحاولة إحصائِها وانتزاعِها وتجليتِها، مع إشعارِ المُخاطَبِ بالتَّشويقِ نحو اكتشافِ أوجُهِ هذه العِزَّةِ، وإشعاره كذلك بالتّحدّي، فلكونِهِ عزيزًا صارَ لا يُستطاعُ الإتيانُ بمثلِهِ ووقع به التَّحدّي؛ فهذه العِزَّةُ التي اتَّصف بها الكتابُ هي عِزّةٌ مُغايرةٌ للمعهودِ، فليستْ كأيّ عِزَّةٍ؛ ولذلك نكَّرها ولم يُعرِّفها.

موقعُ جملةِ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ ممّا قبلها:

جملةُ ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ في حُكمِ التَّعليلِ لما قبلها؛ أيْ: وإنّه

العـزيـزُ عَـصيٌّ على أنْ يَنالَ أحدٌ منه بالباطِلِ

لكتابٌ عزيزٌ؛ لأنّه منيعٌ لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه. وقد تكون استئنافًا بيانيًّا على تقديرِ سؤالٍ: كيف كان كتابًا عزيزًا؟ فأُجيب: لا يأتيه الباطلُ. فالجملةُ تفسيرٌ لوصفِ الكتابِ بالعزّةِ[1]. وفُصِلتِ الجملةُ؛ لكونِها في موقعِ الصّفةِ لـ(كتاب) في قولِه: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾[2].

دلالةُ النَّفي بـ﴿لَّا﴾:

انتفاءُ الباطلِ عن القرآنِ أمرٌ دائمٌ لا يتغيَّرُ

النَّفيُ بـ(لا) في قولِه: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ أفادَ النَّفيَ التّامَّ لوقوعِ الباطلِ بأيِّ حالٍ من الأحوالِ في أيِّ زمانٍ وأيِّ مكانٍ. فـ﴿لَّا﴾ تُفيدُ النَّفيَ المُطلَقَ والدّائمَ، فهي تنفي الحدوثَ في الماضي والحاضرِ والمستقبلِ[3]، فتدلّ - هنا - على نفيٍ مُتجدِّدٍ مُستمِرٍّ؛ أيْ إنّ انتفاءَ الباطلِ عن القرآنِ أمرٌ دائمٌ لا يتغيّر.

ولم يَنْفِ بـ(ما)، فلم يَقُلْ: (ما يأتيه الباطلُ)؛ لاحتمالِ أنْ يُفهم منها النَّفيُ على نحوِ جامدٍ أو مُحدَّدٍ بإطارٍ زمنيٍّ دونَ الإشارةِ إلى الديمومةِ والاستمرارِ والاستقبال، فعادةً تُستعملُ (ما) للنّفي المُتعلِّقِ بزَمَنٍ مُعيَّنٍ أو حالةٍ مُؤقَّتةٍ (ماضٍ أو حاضر)، وقد تقتصرُ على الماضي أو الحاضر فقط بحسبِ السّياقِ، فلو قيل: (ما يأتيه الباطل)، فقد يُفهم أنَّ النَّفي يتعلّقُ بزمنٍ مُحدَّدٍ دونَ الإشارةِ إلى الاستمرارِ أو المستقبل. فـ(ما) أقلّ قوّةً في التَّعميمِ والإطلاقِ الشّاملِ المُستقرِّ للنّفي. و(لا) أبلغ وأقوى في التَّأكيدِ على الاستمراريّةِ المُطلقةِ. نعم (ما) في بعضِ السّياقاتِ قد تدلُّ على الاستمرارِ، ولكن هذا يحتاج إلى قرينةٍ واضحةٍ لتحديدِ معنى الاستمرارِ، كما إذا جاءَ الفعلُ مع (ما) في صيغةٍ مثل (ما زال) أو (ما برح)، فهذا

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 17/ 201.
(2) الخطيب، التَّفصيل: 24/ 328.
(3) السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 206.

يُشيرُ إلى الاستمرارِ أو الاستمراريّة في الحالِ، فالاستمرارُ الذي أفادتْه احتاج إلى قرينةٍ أقوى مثل استعمالِها مع أفعالٍ تدلُّ على الاستمراريّةِ. وأمّا (لا) فهي تدلّ على النّفي المُطلَقِ الذي يُفهم معه الاستمرارُ بأدنى ملابسةٍ من مضمونِ السّياقِ دون توقُّفِ ذلك على أداةٍ خارجيّةٍ أو مساعِدةٍ تقترنُ بها لإفادةِ الاستمرارِ كما في: (ما). فالاستمرارُ في (لا) أقوى وأوضحُ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ في: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

بئسَ مَنْ يَطلبُه الوحيُ ليهتدي، فيستنكر له ويُعرِض عنه

عبّر بالإتيانِ دون المجيءِ في قوله: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ – غالبًا – ما يستعملُ في المجيءِ بسهولةٍ[2]، فيدلّ على الوصولِ السّهلِ دونَ جهدٍ كبيرٍ، بخلافِ المجيء الذي قد يدلُّ على التحرُّكِ الجادِّ الثّقيلِ، كما قال تعالى: ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلۡمَلَكُ صَفّٗا صَفّٗا ٢٢﴾ [الفجر: 22]؛ فالمجيءُ هنا يُعبِّر عن حركةٍ جادَّةٍ وثقيلةٍ ذاتِ هيبةٍ. واختيار (الإتيان) في الآيةِ يُفيد أنّ الباطلَ لا يستطيعُ أدنى صورِ الوصولِ إلى القرآنِ، سواء كان ذلك بمحاولاتٍ مُعقَّدةٍ وخبيثةٍ أو بمحاولاتٍ يسيرةٍ خفيفةٍ، أو لطيفةٍ خفيّةٍ، فاختيار (الإتيان) يجعلُ النّفي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ﴾ أشملُ وأدقُّ، لأنَّه ينفي أيسرَ صورِ التَّدخُّل، فمن بابِ أوْلَى نفيُ أعقدِها وأعسرِها، فالباطلُ لا يَتدخّلُ إلى القرآنِ ولا يتوصّل إليه بحالٍ.

نُكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ في ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

التّأكيدُ بالتّقديمِ على اختصاصِ القرآنِ بالنّفي

تقديمُ المفعولِ به (الهاء) في: ﴿يَأۡتِيهِ﴾ على الفاعلِ ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ لاختصاصِ القرآنِ بالذِّكرِ والعنايةِ، فهو المستهدَفُ من النَّفي، فلا يصلُ إليه الباطلُ بحالٍ، فلمّا كان المدارُ عليه في الحديثِ – قُدِّم ضميرُه.

(1) السّامرّائيّ، معاني النحو: 4/ 191.
(2) الرّاغب، المُفردات: (أتي).

وأيضًا: تقديمُ المفعولِ به يجعلُ النَّفيَ أقوى وأبلغُ، لأنَّ ترتيبَ الجملةِ يلفتُ الانتباهَ مباشرةً إلى الشّيءِ الذي يُنفَى عنه أيُّ احتمال (القرآن) قبل ذِكْرِ الفاعلِ ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾.

وفي تقديمِ المفعولِ كذلك: تقليلٌ من أهميَّةِ الفاعلِ ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ والالتفات إلى عَظَمَةِ المُستهدَفِ (القرآن)، فالفاعلُ هنا لا أهميّةَ له مقارنةً بالفاعلِ، فالباطلُ مهما كانت قوّتُهُ، فإنه يُذكَرُ لاحقًا ليُبيِّن أنّه عاجزٌ تمامًا أمامَ القرآنِ.

كذلك تقديمُ المفعولِ (الضمير) في: ﴿يَأْتِيهِ﴾ هو الأنسبُ مع السّياقِ؛ لأنّ السّياقَ يُقرّر أنّ القرآنَ هو محلّ الإعجازِ، والآيةُ تؤكِّدُ عِصمتَه المُطلقةَ؛ لذا فتقديمُ (ضمير المفعول) يتّسِق مع هذا الهدفِ، حيث يصبحُ الحديثُ مُركَّزًا عليه، فيقتضي ذلك تقديمُهُ.

وفي هذا التّقديم أيضًا: توجيهٌ للأذهانِ إلى النّتيجةِ بدلَ الفاعلِ، والنتيجةُ حاصلةٌ في الفعلِ والمفعولِ ﴿لَّا يَأْتِيهِ﴾، وحاصلُ تلك النّتيجةِ أنّ الباطلَ لا يستطيع التّأثيرَ على القرآنِ، فكأنّه قدَّم النّتيجةَ إسراعًا بها إلى الأسماعِ والقلوب؛ لأنّها الغرضُ والقصدُ.

غرضُ تعريف المُسنَد إليه ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ ومعنى (ال):

تعريفُ ﴿ٱلْبَـٰطِلُ﴾ في قولِهِ: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ﴾؛ لإفادةِ الشُّمولِ والاستغراقِ لجميعِ أنواعِ الباطلِ، فـ(ال) فيه للجنسِ فتُفيد العمومَ، ممّا يُحقِّقُ نفيًا قاطعًا ومُطلقًا لأيِّ تأثيرٍ من أيِّ نوعٍ من أنواعِ الباطلِ على القرآنِ في الماضي أو الحاضر أو المستقبل. ولو كان التعبيرُ: (لا يأتي باطلٌ) - بدون تعريف - لفُهِم منه أنّ بعضَ أنواعِ الباطلِ قد لا تأتيه، لكن ليس كلّ الباطلِ؛ فجاء التّعريفُ ليكون الحديثُ عن الباطلِ حديثًا عامًّا مُطلقًا لا يترك مجالًا لاستثناءِ أيِّ نوعٍ منه.

تعريفُ المُسنَدِ إليه أسهَمَ في تقويةِ معنى النَّفي

معنى ﴿مِنْ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قولِهِ: ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ ابتدائيّةٌ تدلُّ على ابتداءِ الغايةِ

في المكانِ أو الجهةِ، أيْ إنّ الباطل لا يمكنُهُ الوصولُ إلى القرآنِ أو التّأثيرُ عليه ابتداءً من الجهةِ الأماميّةِ (مجازًا: المستقبل أو الأمور المستقبلة). ولا من خلْفِه (كنايةً عن جهةِ الزّمانِ الماضي)، وكأنّ المعنى: أنّ الباطلَ لا يستطيعُ أن ينشأ أو ينطلق ليأتي القرآنُ من أيّ جهةٍ كانت.

القرآنُ مُستَغْلِقٌ الـجـهـةِ فـلا خـلاصَ لـباطلٍ إليه

نكتةُ عدمِ إسقاطِ الجارِّ:

لم يَقُلِ البيانُ القرآنيُّ: (لا يأتيه بين يديه) بإسقاطِ حرفِ الابتداءِ؛ لأنّ ﴿مِنْ﴾ تُضيفُ دلالةَ الامتناعِ التّامِّ عن الباطلِ من أيِّ جهةٍ، فالجمعُ بين ﴿مِنْ﴾ و﴿بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ يجعلُ النَّفيَ أكثرَ تأكيدًا وبلاغةً، وكأنّ ﴿مِنْ﴾ تشيرُ إلى أصلِ الباطلِ أو بدايتِه، كأنّه لا يملكُ حتّى نقطةَ انطلاقٍ.

الباطلُ هَشٌّ في أصلِهِ وضعيفٌ في مُنْطَلَقِهِ

الكنايةُ والاستعارةُ في: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾:

أوّلًا: الكنايةُ:

الكنايةُ هنا في تركيبِ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ و﴿مِنْ خَلْفِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى معانٍ أعمق دون التّصريحِ المباشرِ، فقولُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ كنايةٌ عن المستقبلِ أو ما سيحدث لاحقًا، ودلالةُ الكنايةِ هنا: أنّ الباطلَ لا يستطيعُ النّفوذَ إلى القرآنِ فيما يتعلّقُ بالأحداثِ القادمةِ أو ما سيحدثُ لاحقًا.

اجـتـرازُ الكنايةِ للاستعارةِ

وقوله: ﴿مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ كنايةٌ عن الماضي أو ما حدث سابقًا. ودلالةُ الكنايةِ هنا: أنّ الباطلَ لم يأتِ القرآنَ في الماضي، ولن يُؤثِّرَ فيه أو يُشوِّهه من جهةِ ما مضى.

ويصحّ أنْ يكون قولُهُ: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ كنايةً عن جميعِ الجهاتِ؛ أيْ: (جهات المكان، لا الزّمان كما في الكنايةِ

الأولى)؛ أيْ: لا يتطرّق إليه الباطلُ من جميعِ جهاتِه[1]. وفي التركيبِ مجازٌ بحذفِ الغايةِ؛ أي: لا يأتيه من بين يديه إلى خلفه، ومن خلفِه إلى بين يديهِ[2]. وهذه الكنايةُ المكانيّةُ جاريةٌ على الحقيقةِ، والكنايةُ الزّمانيةُ الأولى جاريةٌ على الاستعارةِ[3]. وتصوّر الحقيقة في المكانيّة على النّحو التّالي: أنّ الكتابَ في جهةٍ ومكانٍ على الحقيقةِ، فلا يأتيه من جهةٍ من الجهات باطلٌ يزيدُ عليه أو ينقصُ منه، كأنّه قيل: مكانُ الكتابِ معصومٌ فلا تطالهُ يدُ الباطلِ.

ثانيًا: الاستعارةُ:

سبقَ القولُ إنّ الكنايةَ الزّمانيّةَ (الماضي والمستقبل) في: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ جاريةٌ على الاستعارةِ، فاستُعيرت ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ للإشارةِ إلى المستقبلِ، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ للإشارةِ إلى الماضي. وفي الأصلِ: ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ تعني الجهةَ الأماميَّةَ لشخصٍ، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ تعني الجهةَ الخلفيّةَ، لكنّ المعنى انتقل مجازًا إلى الزَّمنِ، حيث: ﴿بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾: المستقبل (ما سيأتي أمامه)، و﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾: الماضي (ما ولّى وانقضى). وهذه الاستعارةُ تُضفي بُعدًا تصويريًّا قويًّا، حيث تجعلُ الزّمنَ وكأنّه شيءٌ محسوسٌ يُرى أمامَ الشّخصِ أو خلفَه، فقد جعلتِ الزّمنَ كأنّه مكانٌ له أمامٌ وخلْفٌ. ولا يخفى ما فيه من تعزيزِ عصمةِ القرآنِ عبر الزّمنِ كلّه ماضيه ومستقبله.

الاستعارةُ التّمثيليّةُ في التّركيبِ:

في قولِه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ نفيٌ للباطلِ عن القرآنِ من جميعِ جهاتِه، فلا يُداخله ولا يشتملُ عليه، لا في ظاهرِه ولا في ضِمْنِه، فنفي إتيانِ الباطلِ عنه هو نفيٌ لوجودِه

مَن أرادَ الحمايةَ والعصمةَ وجَدَها في حَرَمِ القرآنِ

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 378.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 152.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

فيه، وليس نفيًا لادِّعاء الباطلِ عليه[1]. وانتفاءُ الباطلِ عن القرآنِ العظيم من جميعِ جهاتِه المُكنَّى عنها بـ(بين يديهِ ومن خلفِهِ) في ذلك استعارةٌ تمثيليّةٌ، فقد "شبّه الهيئةَ المُنتَزَعَةَ من جانب القرآنِ، بهيئةٍ مأخوذةٍ من شخصٍ حُميَ من جميع جهاته؛ أي: المكانيّة، فلا يُمكِنُ إيصالُ الضّررِ إليه من عدوٍّه"[2]. أمّا على اعتبارِ أنّ ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ أيّ: أخبار الماضي قبله لا تُبطلُهُ، وأخبارُ المستقبلِ بعدَه لا تُبطلُهُ، فلا استعارةَ تمثيليّةَ حينئذٍ.

تعليلُ الكنايةِ في: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾:

سبقَ القولُ بأنّ قولَه: ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ كنايةٌ عن جميعِ الجهاتِ، وعلّةُ تلك الكنايةِ الواردةِ على استيعابِ الجهاتِ، مع أنّه لم يُذكر إلّا (القُدّام – من بين يديهِ، والخلْف – من خلفه)؛ لأنّ ما (قُدّام) أوضح ما يكون، وما (خَلْف) أخفى ما يكون، فما بين ذلك من بابِ الأوْلى، فكانت العبارةُ بذلك كنايةً عن استيعابِ الجهاتِ؛ لأنّ صفةَ اللّهِ (القرآن) لا وراءَ لها ولا أمامَ على الحقيقةِ، فليس وراءَ اللّهِ مَرمَى، ولا دونَ اللّهِ مُنتهى، ونحو ذلك هو ممّا تفهمُ العربُ المُرادَ منه مِنْ علمِ لسانِها دونَ لبْسٍ[3].

مَن لا يُؤتَى من أمامِهِ وخلفِهِ، فهو من سائرِ الجهاتِ غيرُ مُستَطاعٍ

دلالةُ تكرارِ النَّفي: ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾:

إعادةُ حرفِ النَّفي (لا) في قولِه: ﴿وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾ بدلًا من الاكتفاء بالنّفي الأوّل، والتّعبير بـ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾؛ لتقرير نِكاتٍ جليلةٍ:

مناعةُ القرآنِ ثابتةٌ لا تتفاوت في جميعِ مستوياتِ التّحدّي

أوّلها: توكيد النَّفي واستقلاله لكلّ جهةٍ[4]، فكلّ جهةٍ من الجهات التي يُحتمَل أنْ يأتي منها الباطلُ مُنفصلةٌ ومُستقِلّةٌ في النّفي. وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 309.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.
(3) البقاعيُّ، نَظْمُ الدُّرر: 17/ 201.
(4) القونويُّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

التّوكيد: فإعادةُ النّفي مرّتيْن توكيدٌ له. ولو لم يتكرّر النَّفي؛ لفُهِم المعنى بصورةٍ إجماليّةٍ خاليةٍ من عنصري التّوكيدِ والاستقلالِ.

ثانيها: تكرارُ (لا) يُضفي تناغمًا صوتيًّا في طرفي التركيبِ، وهذا الإيقاعُ الصّوتيُّ يطبعُ أريحيّةً على النّظمِ، فيَسّري معناه إلى قلبِ السّامعِ بأيسرِ سبيلٍ.

ثالثها: تحقيق استقلالِ المعاني الكنائيّة المختصّة بكلّ طرفٍ، فـ﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ﴾ له معنًى كنائيٌّ مُستقِلٌّ - كما سبق بيانُهُ - عن المعنى الكنائيِّ لقولِهِ: ﴿مِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾، فإعادةُ النَّفي ضروريٌّ لإبرازِ هذا الاستقلالِ المعنويِّ.

رابعها: إعادةُ النّفي توحي بأنّ محاولاتِ الباطلِ مع القرآنِ مُتكرّرةٌ ومستمرّةٌ عبر الزّمنِ، ويكأنّ تكرارَ حرف النّفي يُشير إلى هذا التّكرارِ في خصومةِ الباطلِ مع القرآنِ، وهذا التّكرارُ يعكسُ استمرار العصمةِ الإلهيّة للقرآنِ في مواجهةِ كلّ المحاولاتِ الفاشلةِ، ممّا يؤكّد أنّ النَّفيَ دائمٌ ومُتجدِّد، ولهذه النُّكتةِ أُعيد وتكرّر؛ ليتقرَّرَ أمانُ القرآنِ وصَوْنُه.

موقعُ جملةِ: ﴿تَنزِيلٌ﴾:

قولُه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ إمّا أن يكون استئنافًا ابتدائيًّا، على تقديرِ مُبتدأٍ محذوفٍ خبرُهُ ﴿تَنزِيلٌ﴾؛ أيْ: هو تنزيل[1].

القرآنُ كاملٌ في مصدرِهِ وكاملٌ في جوهرِهِ

وإمّا أنْ يكون صفةً لـ(كتاب)، وتكون جملةُ ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ معترضةً بينهما، أو صفة، والاعتراضُ إنّما هو عند مَن يمنع تقديم غير الصّريح من الصّفات على الصّريح. وكون هذه الجملة في موقع الصِّفة لـ(كتاب)، فهي بذلك تُفيد الفخامةَ الإضافيّةَ للكتابِ، كما أنّ الصّفتيْن السّابقتيْن (العزّة، وانتفاء الباطل عنه) مُفيدتان لفخامته الذّاتيَّة[2]

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 5/ 19.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 8/ 16.

وإفادةِ الجملة للفخامةِ الإضافيّةِ؛ أي: الكمال الخارجيّ للكتابِ فقوله: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ بيانٌ لمصدر الكتاب؛ وهو وصفٌ له خارجٌ عن ذاتِهِ، وأمّا الفخامةُ الذّاتيّةُ فهي الكمالُ الذّاتيُّ الكائنُ في جوهرِ الكتابِ وهو كونه عزيزًا معصومًا من الباطلِ.

ويصحّ أن تكون جملة ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ تعليليّة للوصفين السّابقين (العزّة وانتفاء الباطل عنه)، كأنّه قيل: هو كتابٌ عزيز لا يأتيه الباطل؛ لكونه تنزيلا من حكيم حميد[1].

غرضُ حذفِ المُبتدأِ في: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾:

مصادرُ الأشياءِ مُحدِّدَةٌ لِقيمتِها

على وجْهٍ: فإنّ قولَه: ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ خبرُ ابتداءٍ محذوفٌ على تقديرِ: (هو تنزيل). فحذفُ المبتدأ - على هذا الوجهِ - له أغراضٌ بلاغيّةٌ بديعةٌ، ولذلك لم يُصرّح به من هذه النِّكاتِ في حذفِ المبتدأ وتصدير الخبرِ:

الإيجازُ في التّعبيرِ، لا سيّما إذا كان السّياقُ دالًّا على المحذوفِ. وفي حذفِ المبتدأ: إبرازٌ للخبرِ كصفةٍ تعظيميّةٍ، فاقتضى ذلك تصديرَه؛ ليتربطَ المُخاطَبُ مباشرةً بعَظَمَةِ الكتابِ كتنزيلٍ من اللّهِ الحكيمِ الحميدِ دونَ تشتيتِ الانتباهِ بتقديمِ المبتدأ، كأنّ الهدفَ من الخطابِ هو تسليطُ الضوءِ على صفةِ التّنزيلِ الإلهيِّ دون حاجةٍ إلى تمهيدٍ أو تقديمٍ، ففي حذفِ المبتدأ على هذا التّوجيه: إسراعٌ بإحضارِ الخبرِ إلى سمْعِ المُتلقّي؛ فعندما يسمعُ ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ يستحضِر عَظَمَةَ المصدرِ الإلهيّ تأثّرًا به وتهيُّبًا منه. كما أنّ الحذفَ هنا اقتضتْهُ مناسبةُ السّياقِ الذي توفّر على تقريرِ عَظَمَةِ الكتاب وإعجازِهِ، فاقتضى ذلك حذف المبتدأ؛ ليُضفي على الجملةِ وقْعًا خاصًّا يتناسب مع الحديثِ عن عَظَمَةِ الكتابِ ومصدرِهِ.

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 17/ 172.

هناك أيضًا فائدةٌ من حذفِ المبتدأ تعود على المحذوفِ ذاتِهِ، وهو إفساحُ المجالِ إليه من خلالِ إعمال الذّهنِ في تقديرِهِ ومحاولةِ الكشفِ عنه.

غرضُ تنكيرِ الخبرِ: ﴿تَنزِيلُ﴾:

الأكناهُ المُدهِشةُ والعجيبةُ يزيدها الإبهامُ إدهاشًا وإعجابًا

تنكيرُ الخبرِ في قولِهِ: ﴿تَنزِيلُ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾؛ لإفادةِ التّعظيمِ والتّفخيمِ، والدّلالةِ على فرادةِ النّوعِ، وأوّحَديّةِ الأنموذجِ، كأنّ الآيةَ تقولُ: هذا تنزيلٌ ليس كأيِّ تنزيلٍ آخر؛ بل هو تنزيلٌ عظيمٌ مهيبٌ من عند اللهِ الحكيمِ الحميدِ، فإيّاكم أنْ تُنْزِلوه على غيرِ منزلتِهِ، ففي التّنكيرِ إعظامٌ يورثُ التّرهيبَ والخشيةَ. وفي التّنكيرِ إبهامٌ مقصودٌ يورثُ الدّهشة والاستعجابَ من كُنْهِه، كأنّه قيل: هذا تنزيلٌ لا يمكن إدراكُ كمالِهِ وجلالِهِ، وإنّما يُعرف بمصدرِهِ العظيمِ، فيكفيك منه ذلك.

معنى ﴿مِّنْ﴾ في: ﴿مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾:

سلامةُ المصدرِ دليلٌ على ضمانةِ الشَّيءِ ووثوقيّتِهِ

﴿مِّنْ﴾ في قولِهِ: ﴿تَنزِيلُ مِّنَ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ ابتدائيّةٌ؛ أيْ: هذا تنزيلٌ صادرٌ من اللهِ سبحانه، فـ﴿مِّنْ﴾ هنا تدلُّ على مصدريَّةِ التّنزيل. ويصحُّ أن تكون تعليليّةً، كأنّه قال: (هذا تنزيلٌ)، ثمّ علّل كونه تنزيلًا، بأنّه ﴿مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾، فهو في معنى: هو تنزيلٌ موصوفٌ بذلك بسببِ علمِ وقوّةِ الحكيمِ الحميدِ. ويكأنّه علّل بالحكمةِ والحمدِ اتصافَ الكتابِ بالتّنزيلِ. فكونه تنزيلًا مُسبَّبٌ عن صفتي الحُكمِ والحمدِ.

التّنزيلُ يحملُ صفاتِ مصدرِهِ الذي صدرَ عنه:

لم يَقُلْ: (تنزيل حكيم حميد)؛ لدلالة ﴿مِّنْ﴾ على وثوقيّة العلاقة بين القرآن المُنزَّل وبين اللهِ المنزِّل، فالتنزيلُ يحملُ صفاتِ مصدرِهِ: الحكمةُ في التّشريع، والحمدُ في أثرِهِ على الخَلْقِ.

نكتةُ اصطفاءِ ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ للفاصلةِ:

اصطفاءُ ﴿حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ وصفيْن للهِ سبحانه في ختامِ الفاصلةِ؛

ملاحظةُ المطلعِ في الـخـتـامِ إحكامٌ في النّظمِ مُدهِشٌ

لتَناسُب ذلك الوصفيْن الجليليْن مع وصفي الكتابِ قبلهما في قولِهِ: ﴿لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾، فكونُهُ عزيزًا يقتضي صدورَه عن منيعٍ غالبٍ بالحُكْم والحِكمةِ، وكونُهُ مُنزّهًا عن الباطلِ واللغوِ يقتضي صدورَه عن حميدٍ قد حَمِدَ كتابَه بثناءِ الحقِّ وبراءةِ التُّهمةِ من الزَّيفِ. وأيضًا: فإنّ مُقتَضَى وصفي الحكيمِ الحميدِ منطبِعٌ في القرآنِ باشتمالِهِ على الأحكامِ والحِكَمِ، ولكونِ ذلك التّنزيلِ عائدًا بالحمدِ والثّناءِ والشّرفِ والذِّكْرِ المُعلَّى على هذه الأمّةِ، فهو مصدرُ حمْدِها بين الأممِ، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ كِتَٰبٗا فِيهِ ذِكۡرُكُمۡۚ﴾ [الأنبياء: 10]؛ أيْ: شرفُكُم ومحلُّ مَجدِكم والثّناء عليكم فأنتم به مَحمودون ومن غيره مَرذولون. فكأنّه أشارَ بالحكيمِ الحميدِ إلى انطباعِ آثارِ هذيْنِ الاسميْنِ في مضامين القرآنِ وعوائِدِهِ على خَلْقِه؛ فالقرآن حاكمٌ فيهم بالعدلِ والحِكمة، وهم محمودون بسببِهِ.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والخمسون،
سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 52 ، 818 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-641-48-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 52 : المجلد الثاني والخمسون، سورة غَافِر من الآية 77 إلى سورة الشُّورى الآية 12.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-641-48-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-0346315 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"